٦ ـ أصحاب المعالي

(إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفسافها)
« حديث شريف »

الأستاذ محمد محمود زيتون

هـذا وقد نسب الشيعة إلى الإمام علي أنه « كان يعرف السماء زقاقا زقاقا » فهل أريد بذلك الغلو في علم الإمام أم هل أريد به أن السماء لم تعد مجاهل فامتدت إليها يد الإصلاح بالتنظيم والتعمير حتى صارت بها الشوارع والأزقة والدروب ؟ .

ولا ينبغي أن نغفل شأن أهل السماء ورواد من أصحاب الفلك ، الذين جعلوا للنجوم علما ثابت القواعد مأمون المناهج معروف الغايات . .

والتنجيم في جوهره استجابة صادقة للنزعات الطامحة في الأجيال إلى كشف مجاهيل السموات العلا ، وإهمال هذا الجانب ليس إلا نقصا في المعرفة الإنسانية الكاملة ، لهذا كانت الدعوة الإسلامية حريصة على الحث عليها لما لها في تحرير العقل ، وتعريفه بقدرة الله العلي الأعلى

والكواكب سيارة وثابتة . أما الأولى فهي السبع المشهورة : زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر ، وهي مرتبة تنازليا من السماء العليا إلى الدنيا ، لهذا كان القمر أقرب السيارات منا ، وزحل أبعدها ، أما الثابتة فكلها في السماء الدنيا

ويتناول علم النجوم أفلاك الكواكب ومنازلها بالبروج وأدوات الرصد وغير ذلك ، مما يجعل الباحث فيه من أصحاب المعالي

وإذا تتبعنا نشأة التفكير الحر في الأوساط الإنسانية نرى أن الفلسفة اليونانية هي التي تمثل تطور الفكر من مهده إلى رشده ، فقد بدأ الطبيعيون الأولون ينظارون إلى الوجود في حرية واستقلال بعد أن خلعوا عن كاهلهم نير الأساطير والتعاويذ ، واتجهوا بأنظارهم إلى أصل الأشياء

وانتقل الفيثاغوريون بعدهم إلى الأعداد والأنغام غير ناظرين إلى المحسوسات وتخطاهم (بارمنيدس) إلى الوجود من حيث هو الوجود ، واهتدى إلى « الله » واستنتج صفاته على نحو من التنزيه والتجريد لم نر لها مثيلا من قبل

ولما شاعت الفوضى على يد السفسطائيين قام (سقراط) بحملة موفقة على موجة الادعاء والغرور ، وطلب الحقيقة فوجدها كامنة في الكليات لا في الجزئيات ، فاصطنع الاستقراء للوصول إلى غاية ، وأخذ في توليد المعاني من النفوس كما كانت أمه تفعل في توليد الأجنة من البطون ، وبالحوار السقراطي بلغ الفكر إلى حيث ينبغي أن يكون

وجاء تلميذه (أفلاطون) فكان أحرص على تراث الفيلسوف الأثيني ، فابتدع منهجا فريدا هو الجدل وجعله صاعدا ونازلا أي أنه ارتفع بالنظر من المحسوسات في عالم التغير إلى المعقولات في عالم الثبات ، وانتقل بالفكر الخالص من الأرض إلى السماء أي من الأشباح إلى الحقائق ، من الموجودات إلى « المثل » حيث كانت النفس قديما في صحبتها ، وإذا بأفلاطون بعد هذا التحليق ينزل بجدله هذا إلى أمور الدنيا لتفسيرها وتعليلها ، ومعه قبس من السماء كأنه كبيرا لآلهة (زوس) الذي هبط إلى الأرض وفي عقب عصاه جذوة العلم

ولم يقف أفلاطون عند فكرة طارئة ، بل أوصل فكرته إلى غاياتها البعيدة بأن رسم الحدود العليا لكل من الفرد والمدينة في دقة وعلى نحو رفيع ، ولا ننس مع ذلك أسطورة الكهف الأفلاطوني التي ترمز بالكهف إلى الانحطاط في المستوى الإنساني من حيث الرضى بالأشباح الزائفة التي لا تنفي من الحقائق شيئا

ولقد خلع أفلاطون على تلميذه النابغة (أرسطو) أرفع وسام إذ سماه باسم « العقل » أو « عقل المدرسة » وذلك لما كان يمتاز به من سمو في التفكير وتوخ لصوت العقل

أنزل أرسطو الفلسفة من السماء إلى الأرض ليبدأ من الأرض وينتهي إلى السماء فهو من أميز أصحاب المعالي في انتقاله

من العدم إلى الكمال ، وبينهما درجات تصاعدية على أساس من « العقل » ، فالهيولى أو المادة الأولى عدم أو شبه عدم ، ويليها تصاعديا الجماد فالنبات فالحيوان فالإنسان ثم تعلوه الكواكب ومن فوقها جميعا « الله » باعتباره « عقل العقل » والذى هو الكمال المطلق والمحرك الأول الذى يحرك ولا يتحرك . وتحريكه للعالم إنما يكون عن طريق الجذب ، والموجودات كلها تتحرك نحوه بالعشق لأنه كمالها ، والناقص يطمح دائما إلى الكامل

وعنى أرسطو كذلك بالنفس وميز الأخلاق الرفيعة من الوضيعة ، بأن جعل الفضيلة وسطا عادلا بين طرفين متناقرين هما التفريط والإفراط ، ويسمى المعلم الأول : النمور شجاعة البهائم ، وهو الذى ينسب إلى الله الحكمة الإلهية « بينما على المرء أن يتحلى بالحكمة الإنسانية » . وعلى العموم فإن آفاق أرسطو كلها بعيدة الأقطار عالية الأبعاد رفيعة الأهداف ، مما جعله ينفرد بالقمة دون السابقين واللاحقين من فلاسفة الشرق والغرب على السواء

وجاء من بعده عشاق اللذة وطلاب المتعة ، وتذرعوا بمبدإ « ولك الساعة التى أنت فيها » ، وما كان ذلك ليمنع من ظهور أصحاب الأخلاق العالية فى شتى العصور ، وقد أجمعوا على طلب « المثل الأعلى » والتسامى بالنفس عن سفاسف الأمور ، وكان الإسلام كالمنارة بين الخير والشر فى ظلمات الحياة ، وذلك بقول العلى المتعال « ولله المثل الأعلى »

وقدم الأحيائيون لعلماء النفس ثمرات طيبة أفادت كثيرا فى المجال السيكولوجى بل فى الأخلاق . وأكثر من هذا كله فى النظرة الكونية العامة ، فإن أصحاب النشوء والارتقاء إنما يدعون إلى التفاؤل ، ويحثون على التقدم.

وبناء على نشوء الكائنات الحية وارتقائها فى سلم الحياة نراها تهدف إلى تكامل الجهاز العصبى ، وذلك لا يتم إلا إذا انتهى هذا الجهاز إلى المراكز العليا للمخ ، ويقتضى هذا التطور تترتب الكائنات من الدنيا إلى العليا

تأثر السيكولوجيون بهذه الروح التقدمية العامة ففرقوا بين الإدراك والوجدان والنزوع ، كما وقفوا على خصائص الغريزة ، وقالوا بأنها لا يمكن القضاء عليها ، بل الباب مفتوح على مصراعيه للتقدم الإنسانى تبعا لإمكان إعلائها ، وتعلية السلوك

ونرى هذه الروح العالية تسود بقية العلوم بما لها من مبادئ عليا ، ففى المنطق يعتبر المحسوس سافلا والمجرد عاليا ، وفى المقولات ما هو عال ومنها ما هو سافل وفى علم الفيزيقا تميز واضح للأشعة فوق البنفسجية . وهناك « ما بعد الطبيعة » وهى الفلسفة العليا ، وفى الجغرافيا دراسة للطبقات العليا من الجو

وفى علوم الرياضة اصطلاحات خاصة مثل : الترتيب التصاعدى والتنازلى ، والبسط والمقام ، وأكبر وأصغر . وكان اليونان قديما يعتبرون العدد عشرة أكمل الأعداد . على أن البساطة هى غاية الرياضة ، لهذا فهى ارتفاع من الأعداد والأشكال إلى الرموز ؛ أى من الحساب والهندسة إلى الجبر ، ومن ثم إلى الهندسة التحليلية

والفن لن يكون خالدا إلا إذا لمس معالى الأمور ، وعندئذ يسمى « الفن الرفيع » ، أليس من ذلك هذا التمثال اليونانى الذى يصور نسرا قص جناحاه كرمز على المجد الذى لا يريدونه أن يغادر بلادهم ، ولا شك أن تمثال نهضة مصر إنما يمثل قطعة من طموح مختار حتى لقد أقام أبا الهول على يديه ، ونهض بمصر عاليا ، إذ جعلها تشرف ببصرها ورأسها ، وصدرها إلى الملا

وفى الحرب يعتبر المكان العالى مفتاح الفوز ، ولذلك يرفع العلم فى ذراه كرمز على النصر المبين . ويخفض كرمز على الذل المهين

وتنطبع هذه النزعة فى شتى مرافق الحياة فيقال : المصادر العليا ، والسياسة العليا ، والقيادة العليا ، والرئاسة العليا ، والمجلس الأعلى والرئيس الأعلى والقائد الأعلى والمركز العام . وكذلك فى الألقاب : صاحب الجلالة ، والسمو والمجد والفخامة والمقام الرفيع ، وصاحب المعالى وصاحب العزة ، وكذلك الباب العالى والجناب العالى والصدر الأعظم . وفى مصر نقول فى الوظيفة : ترقية ، رتبة ، علاوة ، وفى العراق يقولون ترفيعة

وإذا صدق أرسطو فى حث الإنسانية على التماس الشرف فى التفكير إذ يقول « شرف العقل من شرف موضعه » فهذه دعوة رسول الإنسانية عليه السلام « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها » وبهذا كان فى الطليعة من « أصحاب المعالى »

ممنوع النقل والنشر والترجمة إلا بالإذن من مجلة « الرسالة »

محمد محمود زيتون